فمضيت لا ألوى على شيء سوى قبض المعاش وما أقول حقيقُ

فرأى أن السبيل إلى الحكومة كذب وتدليس وتلفيقٌ ، وقربٌ من الوزير ونسبٌ إلى رجال الدين المتنفذين ، وهو إذا دخل الوظيفة دخلها لقبض المعاش لا يصنع خيراً ولا يجرى أمراً ، كأنه شبحٌ يؤجر وشخص يسخر . والهجاء فى لبنان للحياة الاجتماعية[1] كان شديداً تناولَ الولاة العثمانيين ، وحال البلاد والمجاعة ، والتفرقة ، ولا سبيل إلى إيراده هنا لضيق المجال .

ولو أحصينا ما قيل فى هجاء الحياة الاجتماعية خلال العصور العربية لوقعنا على ديوان جامع واسع فى رسم هذه الحياة سخرية وهزؤاً وشكوى ، ليست من باب الوصف لأنه لا يصف المدينة والناس والألوان الزاهية والصور الحلوة والإعجاب الخالص والفتنة والسحر ، كما رأينا فى الكتاب الذى خصصناه لهذا النوع ، ولكنه جعل ذلك للنقد والتعيير سعياً وراء الإصلاح أو حبًّا بالتشفى والانتقام والضحك والعبث .

وهذا الذى رأينا من أبواب الهجاء قد يكون صدقاً أو كذباً — كما قلنا — ولكنه لن يكون عدة خالصة للمؤرخ العالم يتناولها كحقيقة خالصة أو مسألة علمية صرفة ، ما لم يُعمل فيها معولَ النقد والتمحيص ، وينظر إليها من خلال الشاعر وعصره وظروفه ونفسيته وعقله ، مرضه أو صحته ، فقد يدفع إلى الهجاء أشياء كثيرة ، منها الفقر والحرمان ، أو مركبات النقص أو عواطف الاستعلاء أو الاحتقار والزراية ، أو الهزء والسخرية ، وربما دفع إليه استبطاء الوعد ، واستنجاز العهد ، أو العتب والتأنيب والذمّ والتعريض . بل ربما أوقدت ناره كراهية الناس جميعاً من تشاؤم ونظر أسود ، أو حمق أو طيش ، أو سفه وجنون ، فليس كل الذى يقال جديراً بالالتفات والاحترام .

ولم يتبسط هذا الكتاب فى الهجاء لطبقات الناس وميولهم والمهن والحرف

---

(١) انظر ما أورده الأستاذ عادل الغضبان فى كتابه عن « الشيخ نجيب الحداد » ص ٨ نهجو المتصرف آنئذ .